

## ذكرى

### عبد الكبير الخطيبي (1938-2009)

#### مثقف مغاربي بامتياز

من الصعب التطرق إلى المسيرة العلمية لأولئك الذين تتميز حياتهم بغزارة الكتابة وجدتها، وهم في نفس الوقت منخرطون في قضايا مجتمعاتهم وقضايا العصر. ومن المؤكد أن وطأة هذا الحمل تخف عندما يرسمون هم أنفسهم مسيرتهم، ويحددون منهجهم وتطلعاتهم... وفي مؤلف الخطيبي "التفكير في المغرب" *Penser le Maghreb*، هناك حوار أجراه معه *A. El Kohen Lamrhili* يسمح على العموم باستخلاص التوجهات الفكرية الكبرى لهذا الكاتب الذي يتميز بأنه "لا يكتب لأي أحد ويكتب للجميع".

#### حول البدايات

إن دراسة الخطيبي لعلم الاجتماع في السربون اقتضت الانفتاح على مناهج ونظريات "غربية" ليس فقط في علم الاجتماع، ولكن أيضا في علم النفس، الفلسفة، اللسانيات، السميائيات... إنه كذلك انفتاح ممزوج بمعايشة لمجتمع آخر له خصوصياته. ولكن الخطيبي يقرر بعزم وإرادة العودة والاستقرار النهائي في المغرب، يقول:

"منذ نهاية دراستي بباريس (في 1964) أعيش وأعمل بالمغرب... وقد التحقت بالجامعة منذ عودتي كباحث وأستاذ. ولقد شاركت كما أفعل الآن في النشاطات الثقافية للبلد أكثر من مشاركتي في النشاطات السياسية المباشرة. الانزياح عن الاهتمام هو طريقة عملي، ولكن من غير أن ننسى أنني واحد من المؤسسين للنقابة الوطنية للتعليم العالي. لقد كانت تلك فترة كنت أبحث فيها عن ذاتي، فكل مجالات المجتمع المغربي كانت تهمني"<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> Khatibi, A., *Penser le Maghreb*, Société Marocaine des Éditeurs Réunis, Rabat, pp. 71-72.

وتبين لاحقا من خلال حوار آخر أجراه معه حميد أبتاتو أنه أراد دائما تفعيل علم الاجتماع، وجعله مرجعا تحتكم إليه المشاريع التي لها علاقة مباشرة مع تطبيقات الحياة اليومية للمواطن. يقول: "إننا نحتاج للعقل السوسولوجي في المجال التطبيقي كذلك... هناك مشاكل الطبقات، ومشكلة تهميش البادية، ومسألة العائلة، ومسألة التأثيرات الحضارية العالمية على المجتمع المغربي.. إلخ وكل هذا يحتاج إلى تحليل اجتماعي ويحتاج إلى علم الاجتماع الذي يحاور علوما أخرى كما كان في الستينات، حيث كان الحوار مع التاريخ والجغرافيا والاقتصاد، وللاستدلال على ذلك نعود إلى *Le bulletin économique* لأن هذه المجلة تعطي نظرة عن المجالات التي كنا نهتم بها آنذاك"<sup>2</sup>.

إن العودة إلى الوطن في تلك الحالة لم تكن عفوية أو بدون معنى، ولكنها كانت أيضا موجهة بنظرة خاصة لمفهوم المثقف ومهامه بالنظر إلى بيئته وبالنظر إلى عالمه، فالمثقف في نظره:

" مستقبل ومرسل لعلمات عصره، إن لم يكن هو نفسه مبدعا ومخترعا لها. وحتى وإن كان محافظا أو مصلحا أو مجددا فإن المثقف له وظائف كثيرة منها: - الوظيفة البيداغوجية والتقنية من خلال التحفيز على مسائل الفكر والفن وذلك بأن يمنح نفسه كنموذج.

- الوظيفة الاجتماعية المتمثلة في إيقاد الفكر لأن يكون ذكيا وزو حساسية اتجاه عصره... قد يحدث للمثقف أن ينخرط في الحياة السياسية، ولكنه من النادر أن يجعل من ذلك ولادة طويلة مهنته الدائمة.

- الوظيفة الإيتيقية بأن يكون ملزما أن يتكيف وباستمرار مع المبادئ والقيم التي يدافع عنها.

تبعاً لذلك فإن المثقف ينتمي لعصره، وإذ أن عصرنا في نهاية هذا القرن منخرط في تغيير حاسم والمتمثل في التقسيم الجديد للعالم إلى مناطق نفوذ، وهذه الهوة تؤدي إلى تراتبية بين الجماعات وبين الدول... والليبرالية الديمقراطية

<sup>2</sup> حوار أجراه حميد أبتاتو مع الخطيبي " عشيت مع الكتاب الأحياء والأموات قبل أن أكون كاتباً": الزمان- السنة الحادية عشر- العدد 3253 السبت 1 من ربيع الثاني 1430هـ- 28 مارس 2009.

تشكل رأس الحرية، فالإيديولوجيا المهيمنة مقدمة كقيمة مطلقة للنزعة الإنسانية العالمية وللنظام العالمي الجديد<sup>3</sup>.

## المشروع متعدد الاتجاهات

إذا، وبالنظر إلى هذا الدور المنوط بالمتقف، وبالنظر إلى خصوصية اللحظة التاريخية التي تضع ولا شك المجتمعات الناشئة في خطر، فمن الطبيعي حينها أن ترتسم ملامح الجدية والنضال اللا-مشروط على شخصية الفقيه، إذ يقول:

" في الحقيقة أنا جد منخرط فيما أفعل... وجد منخرط فيما أقدمه للقراءة... إنها الجدية التي تسير خطورة الحياة. وبالنسبة لي فإن النضال (لنحتفظ لهذه الكلمة بمعناها السارتري) هو تحويل ما أحس به وما أفكر فيه إلى شكل أدبي وكتابي<sup>4</sup>.

إن موقفه هذا يتأسس انطلاقاً من معطين أساسيين، أحدهما مرتبط بوعي روح العصر الذي يعيش فيه (العولمة)، والآخر مرتبط بروح الشعب المتمثل في " لا تجانس L'hétérogénéité المجتمع المغربي اللغوي والثقافي (البربرية، العربية، التأثير بالغرب، الثقافة الشعبية) المسنود بطريقة صارمة من غير الإعلاء من شأن واحد منها على حساب الآخر"<sup>5</sup>، وذلك ما يطبع مشروعه بطابع "النقد المزدوج"، ف " لظالما نادى الفقيه باعتناق فكر مغاير ونقد مزدوج لا يسلك مسلك العقل ولا مسلك اللا-عقل كما فكر فيهما الغرب وإنما يحدث خلخلة مزدوجة يقيم فكراً متعددًا"<sup>6</sup>. ويعبر الخطيبي أيضاً عن موقفه من التراث ومن العولمة قائلاً:

" إننا نعرف جيداً من الناحية النظرية أنه يجب الحفاظ على التراث ودراسته بطريقة متجددة لأنه لا يجب أن نكتفي بالتعامل معه كفولكلور... إن

<sup>3</sup> Khatibi, A., *Penser le Maghreb*, Société Marocaine des Editeurs Réunis, Rabat, pp. 3-4.

<sup>4</sup> *Ibid*, pp.71-72.

<sup>5</sup> Wahbi, Hassan, *Les mots du monde, Khatibi et le récit*, Publication de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines/ Agadir (série : thèses et mémoires N° 3), pp. 20-21.

<sup>6</sup> عبد السلام بن عبد العالي، غياب صاحب مشروع النقد المزدوج: الزمان- السنة الحادية عشر- العدد 3253 السبت 1 من ربيع الثاني 1430هـ/ 28 مارس 2009.

العولمة موجودة منذ القديم وليست شيئاً جديداً، فالأقلام الأمريكية موجودة من زمان في العالم كله، وتشكل الصورة ثاني أهم إنتاج بعد صناعة الأسلحة"<sup>7</sup>. إن التعامل مع التراث ومع الحضارة لم يكن عملاً سهلاً، باعتبار أنه "كلما كانت حضارة ما قديمة، كلما أخفت أسرار نضجها البطيء"<sup>8</sup>. وبالتالي فإن الواقع المباشر ليس هو الواقع الحقيقي، إنه مجرد رموز لا يمكن أن تدرك معانيها إلا بواسطة التحليل والتأويل والحفر، وهذا ما نلمسه مثلاً في "الذاكرة الموشومة"، فبالنسبة لأسماء الأعلام مثلاً، يتوقف الخطيبي عند اسمه "عبد الكبير"، محاولاً كشف دلالاته بالنظر إلى التاريخ، وبالنظر إلى الذاكرة، لأن "معرفة الإسم يعني معرفة ثقله الرمزي... إذ أن الذاكرة المخبأة في الإسم تنسى، لأن هذا الأخير يهذب بواسطة قرون من الاستعمال اليومي الذي يحبطه من خلال مساواته بالأنا الذي يحاصره"<sup>9</sup>.

والظواهر اللا-مفكر فيها اليوم لم تكن كذلك في الماضي، إذ من الممكن الاستفادة من دراسات الأوائل فيما تعلق بممارسات اليوم، ففي "الإسم العربي الجريح" نجد أن "أبرز القضايا التي ظهرت مع هذا الكتاب هي قضية الجنس أو (الجماع) فهذه القضايا غير المفكر فيها أصبحت ذات شأن في الاهتمام الثقافي لنخبة موسعة من الكتاب والأدباء والفنانين العرب، وما أعطى لهذا الموضوع (الجماع/الجنس) بروزاً في الثقافة العربية هو اعتماد الخطيبي على كتاب الشيخ النفزاوي "الروض العطر في نزهة خاطر" أي أن الخطيبي أتى بعنصر جديد في الدراسة العربية، وهو العودة إلى الأعمال التي كانت الثقافة العربية تجعلها في مكان (الانحطاط)"<sup>10</sup>.

<sup>7</sup> حوار أجراه حميد أبتاتو مع الخطيبي بعنوان: "عشت مع الكتاب الأحياء والأموات قبل أن أكون كاتباً": الزمان- السنة الحادية عشر- العدد 3253 السبت 1 من ربيع الثاني 1430هـ/ 28 مارس 2009.

<sup>8</sup> Sijelmassi. M, Khatibi. A., El-Moujahid, H. (dir.), *Civilisation marocaine*, Casablanca, Edition Oum/Actes Sud/ Sindbad, 1996, p 10.

<sup>9</sup> Wahbi, *Les mots du monde*, op. cit, pp 20, 21.

<sup>10</sup> بنيس، محمد، نقد ثقافتنا التقليدية والثقافة الأوروبية التبريرية: الزمان، السنة الحادية عشر، العدد 3253 السبت 1 من ربيع الثاني 1430هـ 28 مارس 2009 .

## حول المنهج

تميز الخطيبي بتوظيفه لمختلف العلوم الإنسانية المعاصرة في قراءته لواقعه ولتراثه من غير أن يضع حواجز بينها، مدركاً أن فهم الإنسان المغربي في بيئته وتاريخه يستدعي الاهتمام بفن الكتابة ودلالة الأسماء بالنظر إلى أصولها التاريخية، وكذا الاهتمام باللغة المزدوجة، وعدم التردد في ولوج المناطق المحظورة كالحب والجنس (إشكالية الجسد)... وفي كل تلك القضايا اعتمد الملاحظة المركبة والجدلية للواقع وللذات للوصول إلى ما اسماه بالتماسك والبناء، يقول:

” إن طريقة عملي كما هي العادة عند كل محلل، هي الملاحظة المتزامنة مع مراقبة الذات. إنني أتقدم من الأشياء، ومن المسائل عن طريق الحدس أولاً (إنني لا أُلغيه) وبعدها وعن طريق التشكك / *Tâtonnement* أمسح الأراضي الخاصة بموقع خطابي... إنهم يحاولون إدخالني في خانة، في حين أنني مساح أراضي“<sup>11</sup>.

و” في الاسم العربي الجريح ركزت على مفهوم الجسم، لأن الجسم مادي وله أبعاد تاريخية ورمزية... وما حاولت أن أدرسه هو كيفية تصوير الجسد في الثقافة ومن ثمة اهتممت برسم هذا الجسم عن طريق الوشم. كما اهتممت بالأمثال كلغة للجسد... إلخ فالأبحاث التي أقوم بها تكون في بعض الأحيان تجريبية ولكن أكثرها يبدأ بطريقة إحساسية باطنية، ثم بعد ذلك تتحول إلى فكرة، ثم إلى افتراض ثم تصير متماسكة ومبنية... لقد فكرت دائماً في المكبوت المغربي وفي الثقافة“<sup>12</sup>

ويمكن تلخيص هذا المنهج كما يلي:

الإحساس الباطني (الحدس - ما يتجاوز العقل والواقع) ← الفكرة (الرؤية غير المتماسكة) ← الافتراض (ما يمكن أن يكون مطابقاً للعقل وللواقع) ← التماسك والبناء (الموقف الاستدلالي المتوافق مع العقل ومع الواقع).

<sup>11</sup> Khatibi, A., *Penser le Maghreb*, op. cit, pp.71-72.

<sup>12</sup> حوار أجراه حميد أبتاتوم مع الخطيبي ” عشيت مع الكتاب الأحياء والأموات قبل أن أكون كاتباً“: الزمان- السنة الحادية عشر- العدد 3253 السبت 1 من ربيع الثاني 1430هـ/ 28 مارس 2009 .

## المؤلفات والحقول البحثية المتنوعة: الخطيبي يتكلم

"لأخذ مسألة المغرب، فإنه في سنة 1969، نشرت كتابا حول الرواية المغربية، وفي سنة 1984 نشرت مقالا ضم مقالات ودراسات مكتوبة ما بين 1971-1982.

ترأست سنة 1977 نشر عدد خاص للأزمة الحديثة *Temps Moderne* في مجلة "حول المغرب" / *Du Maghreb* وذلك بمشاركة باحثين مغاربة، جزائريين وتونسيين. ويوجد في "الجمع المغربي" / *Maghreb pluriel* نضال نظري جذري...

لننتقل الآن إلى كتابي الأدبي الأول "الذاكرة الموشومة"، فبطريقته هو نشرة إخبارية وبرنامج. وانتقال من الاستعمار إلى إزالة الاستعمار.

في السبعينات، كنت أخوض نشاطا مزدوجا، والمتمثل في عالم الاجتماع، والنشاط الآخر. في هذا الاتجاه فتحت بابا نظريا على الثقافة الشعبية في مقالي "الاسم العربي الجريح"، حيث أعتقد أن هذا الكتاب كان له صدى واسع.

وبعدها تابعت نشاطي الأدبي بالأساس والمتمثل في الروايات، الشعر، والمسرح، وفي نفس الوقت واصلت في نشر مقالات أخرى، مثلا تلك المتعلقة بفن الكتابة، والأشكال الأخرى لعرض الصور. وكمثال آخر مقارنتي للجنسانية في القرآن.

منذ سنة 1973 وجهت عنايتي لأكبر مشكلة سياسية لعصرنا، والمتعلقة بالصراع بين الصهيونية و النزعة الوطنية الفلسطينية والعربية.

بين كل من *Vomito Blanco* (حول الوعي البائس) وبين مراسلاتي مع *جاك هسون Jacques Hassoun*، انتقلت من التحليل الجدالي إلى مقال للحوار حول العنف القديم والبالى والذي يربط هذا المشكل مع الاستغاثة.

إضافة إلى أنه إلى جانب بعض المقالات، أنجزت عملا أسميته "نقوش من المنفى" *Gravures d'un exil* مع شعر *محمود درويش* ومؤلفات *رشيد قريشي*، هذا العمل لا يزال غير منشور.

إن مؤلفي "شخصيات أجنبية" *Figures de l'étranger* يأخذ مكانة خاصة في مساري، ويتعلق الأمر بعلاقتي النقدية اتجاه فرنسا واتجاه الفرائكفونية. أليس كل واحد من مؤلفاتي يصب في السياسة الثقافية؟

و كتابي الأخير "فوق الكتف" *Par-dessus l'épaule* يتطرق لعلاقات الحب<sup>13</sup>.

وللاختصار، فإن المنحى الفكري لدى الخطيبي يتجلى في أنه " يعيد النظر في كثير من العلائق: في العلاقة بالجسد أولا، كي لا يظل مجرد منبع للخطيئة والدنس والشر، ليغدو قوة خلاقية وتدفعاً للرغبات، ثم في العلاقة بالمقدس ثانياً، كي لا يظل موضوعاً متعالياً، وإنما ليتجلى في حضوره في المعمار والفنون وفي تجربة التصوف التي ينبجس فيها اللامرئي في المرئي، ثم أخيراً وليس آخراً، في العلاقة باللغة، كي لا تظل هوية متوحشة، وإنما تعاش في تجربة تعددية كمجال لفعل الاختلاف حيث تتفاعل اللغات، وتستدعي إحداها الأخرى مبقية عليها كخارج"<sup>14</sup>. ولكن يمكن أن نضيف إلى هاته الاتجاهات الثلاث (الجسد، المقدس، واللغة) اتجاهات أخرى تكمل مسار الخطيبي بكامله، وذلك انطلاقاً من تشخيصه لوضعية المغرب العربي وللمعوقات التي تقف أمامه، والتي حددها في "ضعف المجتمع المدني، الطبيعة الصلبة للسلطة، نقص المهارات التقنية، الثقل الثيوقراطي الذي يمنع التمييز بين الدولة والدين وضعف الصورة التي للمغرب عن نفسه"<sup>15</sup>. وبالتالي يتبين تكامل وتعدد اهتمامات الخطيبي، وحتى وإن منح أولوية لدراسة بعضها، فذلك لا يعبر عن ضيق النظر، بل يعبر عن عدم اكتمال المشروع. ولكن لا ننسى أنه ترك لنا عدداً معتبراً من الدراسات الجادة، التي لا زالت بحاجة إلى القراءة والدراسة من أجل الاستمرار في كشف أسرار حضارتنا، وأيضاً من أجل مزيد من الإبداع، اقتداءً بـ الخطيبي نفسه: " بدأت حياتي الثقافية بالكتابة الإبداعية لأن الكتابة هي ما يبقى"<sup>16</sup>.

حيرش بغداد محمد

<sup>13</sup> Khatibi, A., *Penser le Maghreb*, op. cit, pp.71-72.

<sup>14</sup> عبد السلام بن عبد العالي، غياب صاحب مشروع النقد الزدوج: الزمان - السنة الحادية عشر - العدد 3253 السبت 1 من ربيع الثاني 1430هـ / 28 مارس 2009.

<sup>15</sup> Khatibi, A., *Penser le Maghreb*, op. cit, pp. 3-4

<sup>16</sup> *Ibid*, pp. 71-72.

## مناصب وجوائز:

-أستاذ جامعي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط،

- مدير معهد علم الاجتماع سابقا بالرباط،

- مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي،

- عضو في وحدة الكتاب المغاربة منذ 1976،

- رئيس تحرير "النشرة الإخبارية الاقتصادية والاجتماعية للمغرب"،

- رئيس مجلة "علامات الحاضر" *Signes du présent*.

وقد تحصل الفقيه على عدة جوائز منها:

Le prix littéraire de la seconde édition du Festival de Lazio d'Europe et de la Méditerranée.

Le prix du « *Grand printemps* » de l'Association française « *hommes de lettres* ».

## مؤلفات عبد الكبير الخطيبي

*La mort des artistes* (1964).

*La mémoire tatouée* (Denoël, Lettres Nouvelles, 1971).

*Vamito Blanco: Le sionisme et la conscience malheureuse* (collection 10/18, 1974).

*Ecrivains marocains du Protectorat à 1965* (Sindbad, 1974).

*La blessure du nom propre* (Denoël, Lettres Nouvelles, 1974).

*L'Art calligraphique arabe* (Chêne, 1976) écrit avec Sijelmassi.

*La Lutteur de la classe à la manière taoïste* (Sindbad, 1976).

*Le livre du sang* (Gallimard, 1979).

*Le Prophète voilé* (L'Harmattan, 1979).

*Le roman maghrébin* (SMER, Rabat, 1979).

*De la mille et troisième nuits* (SMER, Rabat, 1980).

*Amour bilingue* (Fata Morgana, Montpellier, 1983).

*Maghreb pluriel* (Denoël, 1983).

*Le même livre* (Editions de l'Ecart, 1985) avec J. Hassoun.

*Dédicace à l'année qui vient* (Fata Morgana, 1986).

*Figures de l'Étranger dans la littérature française* (Denoël, 1987).

*Ombre japonaises*, précédé de *Nuits blanches* (Ed. Fata Morgana, 1988).



- Un été à Stockholm* (Flammarion, 1990).  
*Penser le Maghreb* (Flammarion, 1990).  
*Par-dessus l'épaule* (Ed. Aubier Montaigne, 1992).  
*Du signe à l'image, le Tapis marocain* (Casablanca, 1995).  
*Civilisation marocaine*, Ouvrage collectif/ sous co-direction avec Mohamed Sijelmani. (Casablanca, 1996).  
*La langue de l'Autre* (1999).  
*L'alternance et les partis politiques* (Casablanca, 1999).  
*Vœu de silence* (Ed. Al Manar, Paris, février 2000).  
*Le corps oriental* (Ed. Fernand Hazan, 2002).  
*Pèlerinage d'un artiste amoureux* (Ed. Le Rocher, 2003).  
*Féerie d'un mutant* (Ed. Le Serpent à plumes, 2005).  
*Jacques Derrida, en effet* (Ed. Al Manar, 2007).  
*Le Scribe et son ombre* (Ed. de La différence, 2008).  
*Essai* (Ed. La différence, 2008).  
*Romans et récits* (Ed. La différence, 2008).  
*Quatuor poétique, Rilke, Goethe, Ekelof, Lundkvist* (Ed. Al Manar, 2006).  
*Poésie de l'aimance* (Ed. La différence, 2008).

و لقد قامت دار النشر الفرنسية La différence سنة 2008 بإعادة طبع مجمل أعماله في طبعة شبه كاملة في ثلاث مجلدات كبرى شملت الرواية والشعر والدراسات.

ومن أهم الدراسات التي أنجزت حول الخطيبي نذكر من بينها عمل الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا في ثلاث أجزاء تطرقت إلى الجانب الروائي، الجانب الشعري و الجانب الفكري للفقيد. وهناك أيضا عمل سعيد نجار.

Nejjar, Saïd, *Bibliographie de l'œuvre de Abdelkébir Khatibi*, Souissi, Institut universitaire de la recherche scientifique (Rabat), Université Mohammed V, 2001.

Derrida, Jacques, *Œuvres de A. Khatibi* : Tome 1, Romans et récits (Ed. La différence, 2008).

Derrida, Jacques, *Œuvres de A. Khatibi* : Tome 2, Poésie de l'aimance (Ed. La différence, 2008)

Derrida, Jacques, *Œuvres de A. Khatibi*, Tome 3, Essais (Ed. La différence, 2008).

## الهوامش:

Khatibi, *Penser le Maghreb*, Rabat, Société Marocaine des Editeurs Réunis.

Sijelmasi, Mohamed ; Khatibi, Abdelkébir ; El-Moujahid, El- Houssain (dir.), *Civilisation marocaine*, Edition Oum/Actes Sud/Sindbad.

Wahbi, Hassan, *Les mots du monde, Khatibi et le récit*, Agadir, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, (série : thèses et mémoires N° 3).

بنيس محمد، نقد ثقافتنا التقليدية والثقافة الأوروبية التبريرية: الزمان، السنة الحادية عشر، العدد 3253، السبت 1 من ربيع الثاني 1430هـ / 28 مارس 2009.

عبد السلام بن عبد العالي، غياب صاحب مشروع النقد المزدوج: الزمان، السنة الحادية عشر، العدد 3253، السبت 1 من ربيع الثاني 1430هـ / 28 مارس 2009.

حوار أجراه حميد أبتاتو مع الخطيبي "عشت مع الكتاب الأحياء والأموات قبل أن أكون كاتباً": الزمان، السنة الحادية عشر، العدد 3253، السبت 1 من ربيع الثاني 1430هـ / 28 مارس 2009.